

## الدرس الأول – الجزء الأول

بقلم: الإمام محمد الغزالي

### مقدمة

هناك عظماء كثيرون يقرأ الناس قصص حياتهم ليتملأوا من عناصر النبوغ فيها، وليتابعوا بإعجاب مسالكهم في الحياة ومواقفها بإزاء ما يعرض لها من مشكلات وصعاب، وقد تكون هذه القراءة المجردة هي الرباط الفذ بين أولئك العظماء ومن يتعرف عليهم، وربما تطورت فأصبحت دراسة عميقة أو صلة إنسانية وثيقة.

وأبادر إلى القول بأنني لم أكتب عن صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وفي نفسي هذا المعنى المحدود.

فأنا رجل مسلم عن علم، أعرف لماذا آمنت بالله رب العالمين، ولماذا صدقت بنبوة محمد، ولماذا اتبعت الكتاب الذي جاء به، بل لماذا أدعو الآخرين إلى الإيمان بما سكنت إليه نفسي من هذا كله.

إن المسلمين الآن يعرفون عن السيرة قشوراً خفيفة، لا تحرك القلوب ولا تستشير الهمم، وهم يعظمون النبي وصحابته عن تقليد موروث ومعرفة قليلة، ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان، وبما قلت مؤنته من عمل.

ومعرفة السيرة على هذا النحو التافه تساوي الجهل بها. إنه من الظلم للحقيقة الكبيرة أن تتحول إلى أسطورة خارقة، ومن الظلم لفترة نابضة بالحياة والقوة أن تعرض في أكفان الموتى.

إن حياة محمد ليست – بالنسبة للمسلم- مسلاة شخص فارغ، أو دراسة ناقد محايد، كلا كلا. إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيها، ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها. فأني حيف في عرض هذه السيرة وأي خلط في سرد أحداثها إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه.

إنني أكتب في السيرة كما يكتب جندي عن قائده، أو تابع عن سيده، أو تلميذ عن أستاذه، ولست – كما قلت- مؤرخاً محايداً مبتوت الصلة بمن يكتب عنه.

ثم إنني أكتب وأمام عيني مناظر قاتمة من تأخر المسلمين العاطفي والفكري، فلا عجب إذا قصصت وقائع السيرة بأسلوب يومئ من قرب أو من بعد إلى حاضرنا المؤسف، كلما أوردت قصة جعلتها تحمل في طياتها شحنة من صدق العاطفة وسلامة الفكر وجلال العمل، كي أعالج هذا التأخر المثير.

ومحمد ليس قصة تتلى في يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن، ولا التنبؤ به يكون في الصلوات

المخترعة التي قد تضم إلى ألفاظ الأذان، ولا إكنان حبه يكون بتأليف مدائح له أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون، ويتأوهون أو لا يتأوهون! فرباط المسلم برسوله الكريم أقوى وأعمق من هذه الروابط الملقفة المكذوبة على الدين، وما جنح المسلمون إلى هذه التعابير – في الإبانة عن تعلقهم بنبيهم – إلا يوم أن تركوا اللباب المليء وأعيانهم حمله، فاكتفوا بالمظاهر والأشكال إن المسلم الذي لا يعيش الرسول في ضميره، ولا تتبعه بصيرته في عمله وتفكيره لا يعني عنه أبداً أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم واللييلة.

## الفصل الأول

### حياته قبل البعثة

#### أ - الوقائع التاريخية

تدلنا الأخبار الثابتة عن حياة قبل البعثة على الحقائق التالية:

1- أنه ولد في أشرف بيت من بيوت العرب، فهو من أشرف فروع قريش وهم بنو هاشم، وقريش أشرف قبيلة في العرب وأزكاها نسباً، وأعلاها مكانة، وقد روي عن العباس  $\tau$  عن رسول الله  $\rho$  أنه قال: «إن الله خلق الخلق، فجعلني من خيرهم من خير فرقهم، وخير الفريقين، ثم تخير القبائل، فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت، فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً»<sup>(1)</sup>. ولمكانة هذا النسب الكريم في قريش لم نجد لها فيما طعنت به على النبي  $\rho$  لاتضح نسبه بينهم ولقد طعنت فيه بأشياء

كثيرة مفتراة إلا هذا الأمر.

2- أنه نشأ يتيماً، فقد مات أبوه عبد الله وأمه حامل به لشهرين فحسب، ولما أصبح له من العمر ست سنوات ماتت أمه آمنة فذاق في صغره مرارة الحرمان من عطف الأبوين وحنانهما، وقد كفله بعد ذلك جده عبد المطلب، ثم توفي ورسول الله ابن ثمان سنوات، فكفله بعد ذلك عمه أبو طالب حتى نشأ واشتد ساعده، وإلى يتمه أشار القرآن الكريم بقوله: ( أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى )<sup>(1)</sup>.

3- أمضى رسول الله السنوات الأربع الأولى من طفولته في الصحراء في بني سعد، فنشأ قوي البنية، سليم الجسم، فصيح اللسان، جرى الجنان، يحسن ركوب الخيل على صغر سنه، قد تفتحت مواهبه على صفاء الصحراء وهدوئها، وإشراق شمسها ونقاوة هوائها.

4- كانت تعرف فيه النجابة من صغره، وتلوح على محياه مخايل الذكاء الذي يحببه إلى كل

من رآه، وكان إذا جلس جده لا يجلس معه على الفراش أحد من أولاده (أعمام الرسول) فكان إذا أتى الرسول وهو غلام جلس على فراش جده، فيحاول أعمامه انتزاعه عن الفراش، فيقول لهم عبد المطلب، دعوا ابني، فوالله إن له لشأناً.

5- أنه عليه الصلاة والسلام كان يرعى في أوائل شبابه لأهل مكة أغنامهم بقراريط يأخذها أجراً على ذلك، وقد ثبت عنه أنه قال: «وما من نبي إلا قد رعى الغنم» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا» وفي رواية أخرى أنه قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم»، قال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ فأجاب: «وأنا رعيتها لأهل مكة على قراريط» ثم لما بلغ من عمره خمساً وعشرين، عمل لخديجة بنت خويلد في التجارة بمالها لقاء أجر توديه إليه .

## الدروس والعظات

1- أنه كلما كان الداعية إلى الله، أو المصلح الاجتماعي في شرف قومه، كان ذلك أدعى إلى استماع الناس له، فإن من عادتهم أن يزدروا بالمصلحين والدعاة إذا كانوا من بيئة مغمورة، أو نسب وضيع، فإذا جاءهم من لا ينكرون شرف نسبه، ولا مكانة أسرته الاجتماعية بينهم، لم يجدوا ما يقولونه عنه إلا إفتراءات يتحللون بها من الاستماع إلى دعوته، والإصغاء إلى كلامه

صحيح أن الإسلام لا يقيم وزناً لشرف الأنساب تجاه الأعمال، ولكن هذا لا يمنع أن يكون الذي يجمع بين شرف النسب وشرف الفعل، أكرم وأعلى مكاناً وأقرب نجاحاً، كما قال في الحديث الصحيح: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا».

2- أن في تحمل الداعية آلام اليتيم أو العيش، وهو في صغره ما يجعله أكثر إحساساً بالمعاني الإنسانية النبيلة، وامتلاءً بالعواطف الرحيمة نحو اليتامى أو الفقراء أو المعذبين، وأكثر عملاً لاتصاف هذه الفئات والبر بها والرحمة لها، وكل داعية يحتاج إلى أن يكون لديه رصيد كبير من العواطف الإنسانية النبيلة التي تجعله يشعر بآلام الضعفاء والبائسين، ولا يوفر له هذا الرصيد شيء مثل أن يعاني في حياته بعض ما يعاينيه أولئك

3- كلما عاش الداعية في جو أقرب إلى الفطرة، وأبعد عن الحياة المعقدة، كان ذلك أدعى إلى صفاء ذهنه، وقوة عقله وجسمه ونفسه، وسلامة منطقته وتفكيره، ولذلك لم يختر الله العرب لأداء رسالة الإسلام صدفة ولا عبثاً، بل لأنهم كانوا بالنسبة إلى من يجاورهم من الأمم المتعدنة أصفى نفوساً، وأسلم تفكيراً وأقوم أخلاقاً، وأكثر احتمالاً لمكاره الحروب في سبيل دعوة الله ونشر رسالته في أنحاء العالم.

4- لا يتأهل لمركز الدعوة وقيادتها إلا الذكي النبيه، فالأغبياء والمتوسطون في نجابتهم أبعد الناس عن جدارة القيادة الفكرية، أو الإصلاحية أو الروحية

5- ينبغي للداعية أن يعتمد في معيشتها على جهده الشخصي أو مورد شريف لا استجداء فيه، ولا ذلة ولا مهانة.

إن الدعاة الصادقين الشرفاء يربؤون بأنفسهم أن يعيشوا من صدقات الناس وأعطياتهم، وأية كرامة تكون لهم في نفوس قومهم بعد أن يهينوا أنفسهم، بذل السؤال والاستجداء ولو لم يكن صريحاً مكشوفاً، فإذا وجدنا من يدعي الدعوة والإرشاد، وهو يستكثر من أموال الناس بشتى أنواع الحيل، فإننا نجزم بمهانة نفسه في نفسه، فكيف في نفوس قومه وجيرانه، ومن ارتضى لنفسه المهانة، فكيف يستطيع أن يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويقف في وجه الطغاة والمفسدين ويحارب الشر والفساد، ويبعث في الأمة روح الكرامة والشرف والاستقامة؟